

فالأمة الإسلامية كما ترى تألفت بتأثير المبادئ العالية على عقول آحادها، وبفعل الأصول القويمة في نفوسهم، فكانوا قلة ممتازة لم يتفق وجود ما يشبهها في زمن من الأزمان؛ فان قلت يفضل الواحد منهم ألفاً ممن تألفوا تحت تأثير الحاجات المعاشية، والضرورات المادية، لم تك مبالغاً، فقد ثبت أنهم بعدهم المحدود تغلبوا على الأمة العربية برمتها في عشر سنين، ثم لما وجهوا وجوههم لنشر دعوتهم في الآفاق سحقوا - في أيام معدودة - جيوش الأكاسرة والقيصرة التي وجهت لردهم، وأسسوا - في عقود من السنين - تعد على الأصابع - مملكة لا تغرب عنها الشمس، وهذا ما لم يحدث له شبيه في العالم الانساني في مدى تاريخه كله.

فهذا الاجتماع الذي قام على المبادئ العالية، والأصول القويمة، وكلّ أمره إلى رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) ليحفظ تماسكه، ويصونه تلاحمه، وهو لم يعهد بهذه المهمة الخطيرة إلى رجل لم يبلغ كماله الروحي والعقلي، فيقصر في فهم الحكمة الإلهية من إichائه الدين العام على الأمة العربية، فيخرجها عن حدود مهمتها، أو يعجز عن حملها على العمل بها؛ ولكنه أوحالها إلى روح علوية حاصلة على أكمل ما يمكن أن يتحلى به عامل للوصول إلى هذه الغاية البعيدة. فكان في جميع أوامره ونواهيّه يحاول أن يحفظ على الأمة وجودها المادي كأمة عالمية، وجودها المعنوي كأمة مثالية، حتّى أدت هذه الأمانة إلى العالم كله في رقعة من الأرض يختلف إليها جميع سكان الكرة الأرضية، فتعم الدعوة جميعهم على هذا الوجه. فلم يترك محمد (صلى الله عليه وسلم) مجالاً من مجالات النشاط الروحي والعقلي والعملى إلا خصه من توجيهاته بما يناسبه من لفت النظر إليه، وبيان الحكمة منه، ووضع الحدود له، وذود الآراء المضللة عنه، مما اختصت كتب السنة باستيعابه، وفيها من وجوه حكمته، وأساليب تربيته، ووسائل تقويمه ما يشهد بأن عبقريته قد فاقت أكمل ما عرف عنها عند عظماء رجال العلم والفلسفة.

قلنا قد وكل الخالق جل شأنه إلى رسوله محمد أن يرَبِّ - الاجتماع الذي أوجده الإسلام